الصراع بين إيالة الجزائر والمغرب على حاضرة تواتوبلاد افريقيا ما وراء الصحراءخلال الفترة الحديثة

Le conflit entre la province d'Algérie et le Maroc sur métropole du Touat et les pays d'Afrique au– de la Sahara a l'époque modère

موسى العاشوري(*)[1]،

[1]كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة تونس، moussa.achouri@FLSH.u-sousse.tn

أيوب شرقي[2]

[2]جامعة البليدة 2 علي لونيسي، ayoubchargui0@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/ 07 **تاريخ القبول:**2022/01/ 26

ملخص:

لقد شهدت إيالة الجزائر منذ الوهلة الاولى لتأسيسها صراعا معلنا وخفيا مع المغرب الاقصى ، والمتمثل اساسا في الصراع الحدودي وخصوصا مع الدولة السعدية أين كان ظاهريا وذلك على الحدود الشمال الغربية تحديدا نهر ملوية ، وخفيا على الحدود الجنوبية الغربية و التي تشمل كل من عين ماضي وحواضر توات ، وامتدادا الى بلاد افريقيا ما وراء الصحراء فكما هو معروف أن هذه المسالك والدروب و المحطات هي مسار و شريان رئيسي للقوافل التجارية القادمة من الممالك والحواضر الافريقية المعروفة بتجارة الملح والذهب والتبر من بينها تنبكتوا و سنغاي لهذا كان الصراع محموما بين الجانبين ، كل هذا لأجل الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من مداخيل الذهب و العبيد إما للخدمة في البيوت او تعويض الجنود المفقودين في الحروب ، لبناء دولة قوية ولهذا كان لكل دولة مبرراتها ووسائلها في هذا الصراع.

(*) **المؤلف المرسل: العاشوري موسى**

الكلمات الدالة : إيالة الجزائر، توات ، افريقيا ما وراء الصحراء، القوافل التجارية، المنصور الذهبي، المجال الحدودي.

RESUME:

Depuissacréation, de la régenced'Algérie a ététémoin d'un conflitcaché et déclaré avec le Maghreb, principalement dans le conflitfrontalier, en particulier avec l'État de Saadit, où il se trouvaitapparemment à la frontièrenord-ouest, en particulier le fleuveMoulouya .Caché à la frontièresud-ouest, qui comprend à la fois Ain Madi et le Touat, et une extension aux pays africains au-delà du Sahara. Sungai étaitdonc un conflitpassionné entre les deux parties, Tout cela dans le but d'obtenir le plus de revenus possible de l'or et des esclaves, que cesoit pour servir dans des maisonsou pour compenser les soldatsdisparus dans les guerres, pour construire un État fort, et doncchaque État a sa justification et sesmoyens dans ceconflit.

les mots clés:La régenced'Alger, touât, Afrique sub, saharienne,Caravanescommerciales,elmansourdehebi, Zone frontalière

1.مقدمة :

بعد أن كان المغرب الأوسط (الدولة الزيانية) يعيش مرحلة الانحطاط والضعف السياسي قبيل القرن السادس عشر، فقد كان حسب رأي الكثير من المؤرخين ، بين شقي رحى ، تتقاسم أراضيه وتصادر ممتلكات أهله بين قوتين جارتان وهما الدولة الحفصية بتونس شرقا والدولة المرينية بالمغرب الأقصى غربا.

لكن مع البدايات الاولى للقرن السادس عشر، ومع ظهور الأخوة بربروسا بسواحل البحر الابيض المتوسط واستنجاد سكان الجزائر بهم ، وباعتبارهم كمخلصين للبلاد من ويلات الاستعمار الاسباني للسواحل الجزائرية وتحرير القبائل من جبروت المراكز الاسبانية – حصن البنيون– عمد سكان الجزائر الى إرسال رسالة الى السلطان العثماني يستجدونه فيها بتوليةخير الدين باشا حاكما عليهم .

بعد أن أصبحت الجزائر إيالة عثمانية تابعة للباب العالي ، وخلال كل مراحل الحكم العثماني عمد الحكام الجزائريين الى الحفاظ على المجال الجغرافي للدولة شرقا وغربا ، ومن أكثر ما أرق النظام الساسي للإيالة الحدود مع المغرب نظرا لاختلاف النوايا بينهم وطمع كل جانب في توسعة مجاله الجغرافي لزيادة الولاء السياسي والحصول على مكاسب إضافية من خلال ضريبة اللازمة على القبائل.

من هنا نطرح التساؤلات التالية :

- ماهي اسباب ومظاهر الصراع الحدودي بين إيالة الجزائر والمغرب ؟
- ماهي أهم وسائل طرفي الصراع في كسب مجال جغرافي أوسع مع الحفاظ على المكاسب الجغرافية السابقة ؟
- أهم تأثيرات الصراع الحدودي بين حكام إيالة الجزائر وسلاطين المغرب في تلك الفترة ومستقبلا ؟

تمهيد:

لقد تجسدت نزعة القوى الجديدة في المغرب الاوسط بإقامة سلطة سياسية لها حدودها القارة تحت إدارة جزائرية وباعتراف دولة الخلافة بإسطنبول ، وتكفل خير الدين باشا وبتحقيق ذلك الحلم الذي لم تستطع أي قبيلة أو حتى الدولة الزيانية نفسها لم تحقق هذا المطلب السياسي[1]، الذي يضمن الوحدة ومجال جغرافي معتبر كباقي الدول ، ومن بين الاسباب المساهمة في هذا التحول الجديد للمغرب الاوسط الخطر الدائم والمتربص بسواحل البلاد وهم قوى الاسبان[2].

زيادة على ذلك تواجد شركات أجنبية محتكرة لتجارة البلاد الجزائرية بما فيها صيد المرجان وتجارة الحبوب والزيوت ، ولا ننسى الخطر المحدق والدائم والمتمثل في اقتطاع مساحات جغرافية واسعة من بلاد المغرب الاوسط شرقا من طرف الدولة الحفصية بتونس أين سيطرت على منطقة الزاب وصولا الى قسنطينة ، عنابة وبجاية ، وغربا سيطرت الدولة المرينية على تلمسان وعلى بعض القبائل المجاورة لها ، وهذا لتحصيل مكاسب مالية وفرض ضريبة الرأس لدعم الجيوش في الحروب ، ومن هنا كانت مسألة بناء الدولة الجزائرية الحديثة وتحديد حدودها مسألة بقاء أو ذوبان في قوميات وشعوب أخرى[3].

1. بداية تكوين وبناء الدولة الجزائرية الحديثة (الوجود العثماني بالجزائر):

أمام تزايد نفوذ عروج بداء في الاعداد لبناء اسس دولة جديدة وبمفهوم النظام العالمي لتلك الفترة حيث عمل على ابعاد خصومه السياسيين ، ومن بينهم سالم التومي أين قام بخنقه ، فقد تأكد من نواياه الغير بريئة ومحاولته التحالف مع الاسبان لرد مكانته بمشيخة الثعالبة[4].

كما قام عروج بتقسيم المهمة لبناء الدولة الى قسمين أوكلت المهمة شرقا الى أخيه خير الدين ، أين أقام مركز قيادته بدلس واتجه عروج غربا وعمل على القضاء على جيش تلمسان عند نهر الشلف وعمد الى سجن ملكها ابو حمو الثالث المتحالف مع الاسبان ، حيث شهدت عدة محاولات لتثبيت الحكم بتلمسان، وفي أخر المطاف كيدت مكيدة لعروج عند مغادرته عائدا فتم وضع كمين له حيث تم استشهاده بعين المكان[5].

واصل بعده خير الدين تأسيس دولة الجزائر فسيطرة على مدينة القل في الساحل الشرقي لمدينة الجزائر ثم عنابة، وشرع بعدها بتوزيع الوظائف وتعين الولاة، فعين أحمد بن القاضي

خليفة في الشرق ومحمد بن علي على الناحية الغربية. إن الباب العالي قد جعل مدينة الجزائر في ذلك الوقت تحت حمايته، ولكنه لم يعتبرها بعد كولاية من إحدى ولاياته، وهذا ما يفسر غياب وساطته وتدخله –أي الباب العالي– عندما قام ابن القاضي باحتلال مدينة الجزائر لعدة سنوات 1527–1520م، فاختلف المؤرخين حول مدة هذا الاحتلال فالبعض يقول خمس سنوات، وتمكنه من هزيمة خير الدين وقطع خط الرجعة عليه إلى المدينة مما اضطر هذا الأخير للانسحاب إلى قاعدته القديمة بجيجل[6].

إلا أن السبب الحقيقي في عدم تدخل السلطان العثماني في خضم هذه الأحداث هو انشغاله في جبهات مختلفة من الإمبراطورية، حيث فتحت الجيوش العثمانية بلغراد عام 1521م ورودس في عام 1522م. وخلال خمس سنوات حكم ابن القاضي مدينة الجزائر كان خير الدين في نفس الوقت يعيد بناء قواته من جديد في منطقة نفوذه القديمة جيجل وضاعت مملكته لكن البحر بقى له، حيث بدأ يقوم بفتوحات ففتح القل 1520م قسنطينة 1521م عنابة 1522م وبعد ذلك تحالف مع شيخ بني عباس عدو ابن القاضي، وعاد خير الدين إلى مدينة الجزائر مدعما بقوة شيخ بني عباس فاستقبله أهلها بابتهاج، وبعدها توجه إلى شرشال لتأديب حسن قارة الذي تمرد عليه فتمكن منه حاكمها وقتله، ثم توجه إلى تلمسان وأخضع مولاي عبد الله وأرغمه على دفع الضريبة[7].

فقام باسترجاع تنس وشرشال التي كانت تتحالف مع ابن القاضي ومستغانم سنة 1526م، وفي سنة 1529م أبرم في مدينة الجزائر معاهدة السلام مع ملوك إمارة كوكو التي كان ينشدها من زمن طويل وبعد أن وحد خير الدين الجبهة الداخلية وجه انشغاله إلى الخارج حيث تمكن من تحطيم برج الفنار "البنيون" في 1529م، الذي كان كابوسا جاثما على صدور سكان مدينة الجزائر مدة تسعة عشر سنة[8].

وربط الجزيرة بالشاطئ وصار للمدينة ميناء يحمي سفنها الراسية من الرياح الشمالية الغربية، وقد اتخذ خير الدين من مدينة الجزائر عاصمة له وبسط سلطانه في مدة قصيرة على معظم البلاد، لقد نجح خير الدين بربروس بفضل كفاءته في القيادة وخبرته وبمساعدة السلطان العثماني ودعم أهالي مدينة الجزائر في تأسيس رابطة قوية بين الجزائر واسطنبول، واستمر خلفاء خير الدين من البايلربايات الذين حكموا بعده بداية بأولهم وهو حسن آغا الطوشي منذ سنة 1533م حتى آخر بيلارباي وهو العلج علي سنة 1587م في توطيد السلطة العثمانية في الجزائر، وصولا إلى الواحات في الصحراء الكبرى الجزائرية[9].

2. اهتمام حكام الجزائر الاتراك بمنطقة الصحراء :

عند تسلم صالح رايس السلطة في ايالة الجزائر عمل على إخضاع كل الامارات المستقلة لنفوذ السلطة العثمانية بالجزائر حيث زاد من قوة الايالة الجزائرية اكثر مما كانت عليه، ما إن وصل صالح رايس الى الجزائر عائدا من حملة بحرية حتى علم أن إمارة تقرت و ورقلة لم تدفعا الضريبة المعتادة ، وهما اللتان خضعتا للأتراك لتحميا نفسيهما من هجومات القبائل العربية ، فقد جاء هذا الخضوع عندما قام حسن أغا بحملة بسكرة و الزيبان لإخضاعهم لسلطة الإيالة [10].

فقد شكل صالح رايس حملة من ثلاثة الاف تركي وألف فارس ومزودين بمدفعين وهذا في أوائل أكتوبر 1552م ثم توجه الى نحو الصحراء ولحق به عبد العزيز أمير بني العباس بجيش قوامه ألفي فارس وستة ألاف من المشاة ، كما ألتحق به شيخ العرب بوعكاز ، وعند وصول صالح رايس تحصنت مدينة تقرت داخل أصوارها ولم يتجرأ ملكها أحمد بن سليمان بن عمر على المواجهة ، فعمد صالح رايس الى دك الأصوار بالمدفعية لمدة ثلاثة أيام وبعد أيام من

الحصار تم دخول الاتراك الى المدينة أين ألقوا القبض على سلطان تقرت وأقتيد أسيرا معهم إلى إمارة ورقلة .[11]

ولما علم سلطان ورقلة بقدوم الاتراك فر مع جنوده خارج المدينة ولم يجد جيش صالح رايس غير أربعين زنجيا قدموا الى ورقلة لبيع عبيدهم ، وهنا بعد هاته الحملة أيقن ملك ورقلة أنه لا مفر من عقد الصلح مع الاتراك والاعتراف مجددا بالسلطة العثمانية ودفع الضريبة المعهودة عليهم ، مع التزام ملك إمارة تقرت ايضا.

من خلال هاته الحملة الكبيرة على منطقة الجنوب تقرت و ورقلة، ربما هي إشارة صريحة وواضحة لاهتما م الأتراك بالمناطق الصحراوية وخصوصا لمعرفتهم المسبقة بعلاقة هاتين المدينتين بإقليم توات وما تدره عليهم من خلال تجارة القوافل القادمة من بلاد السودان الغربي لهذا أعطى حكام الجزائر أهمية كبرى لتوات حتى وان لم تصل جيوش الإيالة إلى هناك[12].

3. اهتمام حكام الجزائر الاتراك بمنطقة توات:

رغم احتلال السعديين للمنطقة إلى أنه بقي ينغض على وجودهم أمور منها : العلاقة المتوترة بينهم وبين أهالي المنطقة ، ومنها التدخل التركي بين الحين والآخر في شأن الإقليم ، فرغم أن الأتراك كانوا مهتمين بمناطق الشمال من الوطن أكثر من جنوبه خصوصا توات ، إلا أم كانوا يدركون ما لتلك المنطقة من أهمية ، ورغم ذلك لم يبسطوا عليها هيمنة كاملة كما أنهم لم يفرطوا فيها [13].

ولذلك تراوحت المنطقة تصارع تدخل دويلات المغرب ؛ ولقد تمثل اهتمام الأتراك بالإقليم في صور منها أن الأتراك صدوا سنة 1557 م تلك المحاولة التي قام ا السلطان السعدي محمد الشيخ المهدي والتي استهدف من خلالها توات فصده الأتراك عنها وأبطلوا

محاولته ولذلك بقي الطرفان في صراع تاريخي مرير، كما قام أتراك الجزائر بزيارة إلى الإقليم من خلال إرسال وفد بدعوة من أهله، وقيام باي طرابلس جعفر باشا بإيفاد ابنه إلى توات سنة في زيارة علمية مصحوبا بعشرة من العلماء المتمكنين في أصول المذهب وفروعه وعلوم العربية ، وكان لهم اتصال بعلماء المنطقة.

وما من شك في أن هاتين الزيارتين كان لهما أثر كبير على علماء المنطقة خصوصا باعتبارهما زيارة علمية وعلى عامة المنطقة لما تحمله تلك الوفادة والزيارة من رمزية العلاقة بين توات والأتراك. كذلك قيام وفد من تجار غدامس سنة بزيارة إلى الإقليم ومعهم عشرة من الإنجليز ، وبأيديهم كتاب بعثه حاكم طرابلس يأمر أهل المغرب بعدم التعرض للنصارى الإنجليز بل يبيعون معهم ويشترون ونحن هنا لا نعلق على فحوى الكتاب ومدى سلبيته من عدمها بقدر ما نبين أن ذلك الكتاب الحامل لذلك الخطاب تتجسد من خلاله طبيعة السلطة المتمثلة في الأوامر من الآمر إلى المأمور ، مما ينبئنا على علاقة كانت موجودة بين الطرفين [14].

كما قام العثمانيون بالرد بالمثل على السلطان المولى إسماعيل (1726م) عندما اخترقت جيوشه الحدود المتعارف عليها ، وتوغلت شرقا و جنوبا بحجة مطاردة قبائل عربية معتدية كما كان هناك رابط معنوي وطيد بين الطرفين يعبر عنه ذلك الاحترام الذي يكنه التواتيون للعثمانيين،حيث يعتبرونهم أهل شجاعة وخير مدافع عن الإسلام وبلاد المسلمين ، فقد كان السلطان رمز الخلافة وهم أفضل في هذا الأمر من غيرهم ؛ ونجد في موروث التواتيين الثقافي ما يعبر عن ذلك الاحترام الذي، يكنونه لآل عثمان الأتراك ،كالذي جاء في قصيدة للشاعر الشيخ أبي العباس أحمد زروق بن محمد بن موسى بن صابر البداوي الجعفري ، حيث نوه

فيها ببسالة جيش المسلمين في مقاومتهم للجيوش الفرنسية أثناء حملة نابليون بونابارت على مصر ما بين سنتي 1798 م و1801 م ، ضمنها مدحا للسلطان العثماني في وقته .[15]

هذا ورغم وجود العثمانيين بالجزائر ، ورغم ما لهم من احترام لدى التواتيين ، إلا أنهم لم تكن له سلطة مؤثرة تسير الأمور بالإقليم وتتحكم في شؤونه وتظهر نفوذهم عليه ، ماعدا ما ظهر في ضريبة رمزية يقدمها التواتيون هي بمثابة اعتراف ضمني عما بين الفريقين من الولاء[16].

4. التدخل السعدي للسيطرة على حاضرة توات:

لقد كان التدخل المغربي قديما في توات[17]، إذ يذكر المؤرخ المغربي أبي العباس أحمد السلاوي الناصري محاولة أحد أمراء بني مرين وهو أبو علي عمر بن أبي سعيد عثمان المريني بسط نفوذه على منطقة توات سنة 1315 م بعد صراع بينه وبين أبيه على السلطة ، لكن ما فتئ أن أهملت الدولة المرينية أمر توات عند ما دب الاضطراب في نظامها ، وهذا بشهادة الشيخ محمد المغيلي فإنه عندما وفد إليها سنة 1465م كانت علامات الإهمال والوصاية بادية للعيان [18].

وعند قيام دولة السعديين أواسط السادس عشر بالمغرب الأقصى كانت لهم تطلعات إلى توات وما جاورها حيث كان السلطان محمد الشيخ محاولات لكن لم تفلح بسبب صراعه مع الأتراك ، ولكن لم يتحقق لأسرة السعديين الوصول إلى توات إلا في عهد أحمد المنصور الذهبي حيث كانت له رغبة جامحة في التوسع وتطلع إلى ما في ذلك الأصقاع من ثروات ، فغزا بجيش جرار توات وتم له ذلك ، فأحكم سيطرته عليها سنة 1583م ثم زادت رغبته في التوسع فجعل الإقليم قاعدة لغزو بلاد السودان فاستولى عليها سنة 1591م[19].

لم يتيسر لجيش المنصور التمكن من توات بسهولة بادئ الأمر، حيث وجد مقاومة ، ولكن ونتيجة لما ارتكبه ذلك الجيش من فظائع وجرائم و انتهاكات ما استطاع أهل توات المقاومة و الصمود في وجه تلك الغطرسة المدمرة ،وتلك الجرائم و الانتهاكات المرتكبة في حق أهل توات أثبتها مؤرخون من أهل أولئك المعتدين ، فهذا عبد العزيز الفشتالي وهو كاتب المنصور يقول في مناهله عن ذلك الاحتلال الذي سماه فتحا وحكموا السيف في الرجال منهم النساء والولدان حنقا عليهم حتى كلت سواعدهم فتنادوا بهدم القصبة عليهم مستأصلا شأفتهم فلم يبقى منهم بشر وحيوان وسائر من يدب على الأرض من نعمهم ودواب عين تطرف، فأطبق على الجميع تيار الهلكة فأصبحوا مثلا في الغابرين وعادت منازلهم فارغة كأن لم تعمر بالأمس.[20]

وهذا أبو العباس أحمد الناصري يقول في استقصائه فتقدموا إليهم أولا بالدعاء والطاعة و الإعذار والإنذار فامتنعوا فنازلوهم وقاتلوهم وطالت الحرب بينهم أياما ثم كان الظهور لجيش المنصور فقتلوا وأثخنوا فيهم إلى أن أذعنوا للطاعة وصاروا في حزب الجماعة وبعد أن تم لذلك الجيش احتلالها صار أحمد الذهبي هو صاحب السلطة والسيادة [21]، ففرض سياسته وبث عماله وأوجب المغارم ، ولكن تلك التصرفات تركت أسى وآثارا في نفوس التواتيين فانتفضوا ضد سياسته وضد قواده و قتلوا قائده المسمى سعيد بن الحسن وذلك سنة 1588م فماكان من أمره إلا أن أرسل إليهم جيشه فأعاد عليهم الكّرة ، حيث قمعهم وأرغمهم على الرجوع والإذعان[22].

5. العلاقات بين الأتراك العثمانيين في الجزائر وحكام المغرب:

- **مع الوطاسيين :**

كانت البداية الأولى للعلاقات بين البلدين خلال بداية الوجود العثماني، بأن بادر عروج بإرسال رسالة إلى السلطان الوطاسي محمد البرتغالي، عارضا عليه التحالف وإقامة علاقة أساسها التعاون ضد أعدائهما الأسبان والبرتغاليين والنصارى، كما أبدى عروج للسلطان الوطاسي عزمه على تقديم كل الدعم والمساندة ضد أعدائه السعديين في مراكش وضد كل المناوئين له بالمغرب.

ويظهر من هذا أن عروج كان يهدف من خلال هذا الإجراء إلى تأمين ظهره، أي الحدود الغربية لتلمسان من جهة، وحتى يقف في وجه أي تحالف محتمل بين السلطان الوطاسي والسلطان الزياني المعزول أبي حمو موسى الثالث من جهة أخرى[23].

كما استحسن السلطان محمد البرتغالي الوطاسي هذا العرض، الذي كان يرى فيه فرصة للتحالف مع الأتراك العثمانيين في الجزائر، لطرد الإسبان والبرتغاليين من السواحل، ووضع حد للنفوذ السعدي في الجنوب ،ويبدو أيضا أنن عرّوج كان يتطلع إلى إقامة علاقات حسنة مع سلطان فاس، ومساعدته إذا تعرض لحملة إسبانية أو برتغالية، لأن الإسبان الموجودين في وهران لم يرغبوا في وجود بابا عرّوج في تلمسان التي أعلنت لهم الولاء، وأبدى حكامها النية في التعاون مع الإسبان للوقوف في وجه طموحات بابا عرّوج في إقامة دولة قوية في المغرب الأوسط، تكون قادرة على إحباط المشروع الإسباني في المنطقة[24].

لكن يبدو أن الاتفاق لم يسري كما خطط له عروج حيث لم يقدم محمد البرتغالي الوطاسي الدعم المرجو لعروج خلال محاصرته من طرف الاسبان في قلعة المشور، بقدر ما كان تجنبا للتورط في حرب خارج حدود مملكته خاصة وأنه كان يخشى المد السعدي من خلفه . ونتيجة لهذه التطورات شهدت العلاقات الجزائرية المغربية بعد وفاة عرّوج حالة من

الفتور وصلت إلى حد القطيعة بين الطرفين، لكن ها لم تدم طويلا، حيث شهدت هذه العلاقة تحسنا بعد اعتلاء أبي العباس أحمد بن محمد البرتغالي الحكم في عرش بني وطاس، حيث استمرّت العلاقة بين الطرفين على نفس الحال بعد تولي حسن بن خير ال دين شؤون الجزائر بين 1544و1551م .

لقد بلغ التعاونبينهم ذروته في مجال الجهاد البحري، إضافة إلى انتقال عدد كبير من الأتراك العثمانيين إلى العمل في البلاط االوطاسي ، وحتّى الجيش، فقد ذكر المؤرخين أنَّ عددا لا بأس به من العثمانيين كانوا في الجيش الوطاسي ، وإزاء هذا الوضع استمرت العلاقات الحسنة إلى غاية 1549 م، تاريخ حكم الوطاسيين وظهور السعديين على مسرح الأحداث.[25]

- **مع السعديين:**

ولعل الإشارات الأولى لاتصال أتراك الجزائر، بالمغرب عموما، تبرز بشكل مثير ضمن الجيش الوطاسي والجَيش السعدي كجنود في صفوفهما، حيث تشير وثيقة برتغالية إلى وجود أتراك عثمانيّين في صفوف السعديين منذ سنة 1529 م، إذْ كان للأتراك دور كبير في تقديم الخبرة للجنود المغاربة خاصة فيما تعلق بسلاح المدفعية والأسلحة النارية، أما فيما تعلق بالعلاقات الرسمية، فتشير إحدى الوثائق البرتغالية إلى وجود اتصالات بين أحمد الأعرج والأتراك العثمانيين ،الأمر الذي أقلق الإسبانيين والبرتغاليين[26].

حاول الأتراك في الجزائر عقد اتفاق مع الشريف السعدي ويبدو مما سبق أن البرتغاليين والإسبان كان في نيتهم العمل على إفشال كل محاولة من شأن أن توحد العثمانيين والسعديين، كما تَكشف لنا عن ذلك التَّقارير التي بعثها حاكم وهران الإسباني إلى مدريد كونت دالكوديت.[27] وقد سعى أيضا محمد الشيخ السعدي إلى التقرب من الأسبان، و

أرسل حاكم وهران السابق الذكر إلى فاس وفدا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تحضير حملة مشتركة إسبانية مغربية ضد الأَتراك كما بادر البرتغالي إلى عقد معاهدة السلام بينهم وبين السعديين ،وهذا من أَجل منع الأتراك العثمانيين من الوصول إلى المغرب، وَلم تأخر السعديون في إبرام هذه المعاهدة توترت العلاقات المغربية العثمانية في هذه الفترة، خاصةً بعد إقدام محمد الشيخ سنة 1550م على غْزو تلمسان، حيث وجد السلطان السعدي في طلب أَهالي تلمسان والجالية المورسكية فرصة لتحقيق طموحه بضم تلمسان فحسب الوثائق المعاصرة فإن محمد الشيخ استقبل خمسة عشر وجيها من أعيان مديونة، ووفدا من أعيان تلمسان وجماعة من المورسكيين، وطلب منهم ضم تلمسان كرها منهم[28].

6. أسباب ودوافع الحضور المغربي والتركي ببلاد السودان الغربي:

لقد عرفت بلاد بالمغرب والايالات العثمانية عدة مراحل مختلفة من العلاقات الثنائية سواء بين البلدان المتجاورة أو مع بلدان افريقيا ما وراء الصحراء ، تميزت كل مرحلة منها بسمات وخصائص معينة سواء من حيث اختلاف المجالات ، أو من حيث تعدد الاتجاهات والرؤى والمقاربات خلال فترة كل حاكم وهذا حسب ما تتطلبه سياسات تلك الفترة .

ومن خلال هاته العلاقات نتطرق الى أسباب ودوافع اهتمام كل من سلاطين المغرب وحكام إيالة الجزائر بالممالك الافريقية الاسلامية الواقعة خلف الصحراء الكبرى لبلدان المغرب الاسلامي ،وإذا كان هذا الصنف من الدراسات التاريخية يكتسي أهمية بالغة بحكم ما تزودنا به المصادر التاريخية السودانية،"كتاريخ السودان" لعبد الرحمن السعدي ،و"تاريخ الفتاش" لمحمود كعت والمصادر المغربية ،"كمناهل الصفا" لعبد العزيز الفشتالي، و"نزهة الحادي "للوفراني،و"الترجمان المعرب "للزياني ،و "الاستقصاء" للناصري.[29]

أما مدى حضور تاريخ المغرب في السودان الغربي، اهتمام دولة الأشراف السعديين ،وردود فعلهم تجاه الوجود الأوربي على الساحل المغربي والغرب إفريقي من خلال تبنيهم لسياسة الجهاد ضد اسبانيا والبرتغال ،وكذا اقتناعهم بأهمية الرواج التجاري الصحراوي بالنسبة لطموحاتهم السياسية ،مما جعلهم يركزون منذ البداية على مراقبة المحاور التجارية الصحراوية بهدف قلب موازين التجارة العابرة للصحراء التي لم تعد في صالح المغرب منذ القرن الخامس عشر.

كما كانت الأسباب المباشرة للحملة المغربية على بلاد السودان تكمن في أهمية الملح و الذهب لعلاقة السعديين التجارية مع دول الساحل ولاسيما منها العلاقات المغربية الصنغية[30]، ومن عوامل التوسع السعدي مركزا بالدرجة الأولى على ظهور هاجس الخلافة لديهم مبررين ذلك بنسبهم الشريف ،ولاسيما منهم محمد الشيخ الذي لقي حتفه على يد الأتراك العثمانيين بسبب أطماعهم التوسعية ومسألة الخلافة التي أدت إلى توتر العلاقة بين الطرفين ،حيث ظل الباب العالي يعتبر نفسه الخليفة الحقيقي للإسلام .أما عبد الله الغالب والمتوكل وعبد الملك فأخفوا طموحاتهم وتطلعاتهم للخلافة وركزوا بالدرجة الأولى على ضمان استمرارية مملكتهم[31].

وبوصول المنصور إلى الحكم، ظهرت من جديد مسألة الخلافة التي اعتمد عليها للقيام بالجهاد، لذلك طلب من الأسكيا وملك برنو الاعتراف بسلطته وولائه والعودة إلى حظيرة المجموعة الإسلامية ،لكن مجلس ملأ المسلمين اعتبر مطالبة المنصور بحق الخلافة محاولة لإخفاء نواياه الحقيقية. كما كانت من أهدافه، التزود بالعبيد لاستغلالهم في مصانع السكر[32].

ايضا شكلت المنافسة التركية بالنسبة للسعديين خطرا أكبر، لاسيما وأنهم تمكنوا من استقطاب قسم مهم من الذهب السوداني، مبينا بعض المؤشرات التي تدل على سعيهم إلى توسيع وتقوية محاور وطرق تزودهم بالذهب .

وفي سنة 1583م قام المنصور بفتح واحات كرارة والشط وتوات، وقد شكل ذلك المرحلة الأولى من مخططه التوسعي الذي رسمه، والذي سيعمل على تطبيقه بعد ثماني سنوات بضفاف النيجر، وسيمكنه من أن يصبح سيد جميع الطرق المؤدية نحو السودان الغربي [33].

كذلك اشارت بعض الدراسات الى قضية الصراع السعدي –العثماني حول مملكة برنو حيث أشارت إلى مجيء سفير ماي إدريس ألومه(1562-1603) ليطلب من المنصور تزويده بالجيوش والأسلحة النارية لمواجهة القبائل الإحيائية بتخوم السودان[34]، فانتهز هذه الفرصة لترجمة مطالبته بالخلافة إلى واقع ملموس، وتخليص مملكة برنو من المنافسة العثمانية، ثم ساهمت الأطماع التوسعية للقوات التركية بطرابلس على حساب فزان في توتر العلاقات بين ماي إدريس علومه والأتراك العثمانيين، لكون الأول أبدى تخوفه من تقدم محتمل للقوات العثمانية داخل مناطق نفوذه، فوجه نداء إلى مراد الثالث طلب منه من خلاله أن يعيد إليه منطقة كرارة التي سبق لفرقة عسكرية عثمانية أن استولت عليها ،ويقدم له مساعدة عسكرية،وأمام عدم استجابة مراد الثالث لطلبه، اضطر إلى التوجه صوب المنصور[35].

وكذلك ما أكده المؤرخين في حادثة غزو المنصور للسنغال الذي كان خاضعا لمملكة البول بفوتاتور، وأبرز الجهود التي بذلها العاهل المغربي من أجل الحصول على أسطول بحري، ولعل هذا ما يفسر الأهمية التي أولاها لعلاقاته مع انجلترا ، وحصيلة المغرب السعدي بعد الحملة على بلاد السودان، توضح أن المغرب أصبح إمبراطورية عظمى، سار فيها المنصور على السياسة التي دشنها ونهجها السعديون الأوائل لقلب موازين التجارة العابرة للصحراء

لصالح المغرب الأقصى[36]، وهذه الإمبراطورية ضمت ثلاث مناطق للتبادل التجاري ساهمت بفضل تكاملها في ازدهار التجارة العابرة للصحراء ،حيث تدفقت كميات من الذهب على المغرب بعد فتح السودان و الطرق والمراكز التجارية قبل وبعد الحملة وما عرفته من تطورات ،مبينا دور كل من المخزن العلوي والزوايا كالمختارية الكنتية والتيجانية في ازدهار المبادلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي من 1603م إلى نهاية القرن الثامن عشر ،كما اهتم المولى إسماعيل بالبحث عن عبيد بلاد السودان أكثر من الذهب ،لتشكيل جيش عبيد البخاري.

7. نتائج هذا الصراع:

- أدى هذا الصراع بين العثمانيين والسعديين الى استنزاف قوى الطرفين ، عوض توجيه وتوحيد الجهود ضد الاسبان والبرتغال وتخليص الأندلس المفقود من محنته .
- خسارة كلا الجانبيين للعديد من العدة والعتاد والمؤن خلال هاته المواجهات ، والتي من المفروض تستعمل في عمليات الجهاد ضد الممالك الاوروبية .
- تواصل الصراع المستمر حول حاضرة تلمسان مما أدى بصالح رايس الى ضمها الى الإيالة سنة 1550م وبقيت منذ ذلك الوقت جزء من الجزائر ، ولكنها بقيت محل نزاع دائم بين حكام مراكش والحكام العثمانيين بالجزائر ، عندها برزت مشكلة الحدود ومحاولة كل طرف ترسيمها وذلك لآجل محاربة الفتن الداخلية .
- سياسة المنصور الذهبي وانعكاساتها على البنية السكانية في غرب إفريقيا ،حيث ساهمت في ضعف كثافتها محملا المسؤولية للتجار العرب ،وأشار إلى أن معظم اليد العاملة التي وجدت بالواحات –الصحراوية– والتي تشكلت من العبيد الأرقاء والحراطين تم جلبها من أسواق

النخاسة بالسودان ،وارتفاع أسعار وقيم المواد التجارية ،وتدهور الطرق التجارية الكبرى ودورها بالنسبة لمصير الدول والممالك السودانية،والحملات العسكرية التي وجهها الملوك المغاربة من أجل التحكم في تلك المسالك.

- التحالف السعديين مع مملكة برنو، واستكمال سيطرته على توات وكورارة، والانتقام من الأتراك العثمانيين الذين سبق لهم أن قاموا بقمع ثورة بفزان سنة 1582،تعرضت خلالها حامياتهم العسكرية للتقتيل
- استمرارية الصراع على الحدود بين المغرب وحكام إيالة الجزائر عبر تاريخ كل الاسر التي حكمت المغرب الاقصى فتوارثها المغاربة جيل عن جيل حتى أصبحت مطلب شرعي في نظرهم ، بل أصبحت هي الركيزة والشرط الاول في كل محاولة تعاون مفيد بين الجانبين ، ولهذا تتعثر أي جهود رامية لبناء أي تعاون مشترك.

8. خاتمة

من خلال ما سبق عرضه ضمن هذا المقال ، يتبين لنا مدى التنوع الجغرافي والثراء التاريخي لمناطق إقليم توات وقصوره ، ممّا حتّم على الجغرافيين والمؤرخين تقسيمه إلى ثلاث جهات متباينة ، وهي منطقة تيكورارين والقورارة ومنطقة توات الوسطى ، ومنطقة تيدكلت. كما أن كل واحدة منها ضمت بين جنباتها مدناً وقصوراً مزدهرة ، حطّت فيها الركبان عبر تاريخ الصحراء السحيق ، وخطّت ذكرها كتب الرحالة القدماء كمناطق جذب للعابرين والوافدين مستفيدة من وجود تمايز مناخي ، أتاحه تقاطع ثلاثة أودية جارية تنبع من جهات متعددة ، هي واد مسعود المتصل بواد الساورة وواد زوزفانة ، وواد امقيدن، وواد قاريت .ولعل ذلك التميّز للقطر التواتي ، وموقعه وخصائصه الطبيعية هو الباعث على الجدل المتنامي بشأن

إشكالية حمل الإقليم اسم " توات " ، حيث تنوعت الروايات وتعددت التفسيرات ، ما بين اللغة والاصطلاح كما اهتمت المصادر الجغرافية القديمة.

كعِبر ابن خلدون ووصف الوزان ورحلة ابن بطوطة وغيرها ، مقروناً بتفاصيل وجزئيات عن أهم القصور ومميزاتها الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية ، مع التركيز على الجانب التجاري الذي أضفى عليه مكانة إقليمية خاصة . ممّا كان له الأثر البالغ في احتدام الصراع بين الدولة العثمانية الصاعدة في العالم الإسلامي شرقه وغربه من جهة ، والدول القائمة ببلاد المغرب الأقصى من جهة أخرى ، من أجل الغلبة على حدوده والاستئثار بمزاياه وخيراته

9. قائمة المراجع:

1-بن خروف عمار ، العلاقات بين الجزائر والمغرب1659/1517م، ر ماجستير، جامعة دمشق،1983.

2-كليل صالح، سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الاوسط ، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 2006-2007.

3-كليل صالح، سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الاوسط ، رسالة ماجستير، جامعة باتنة، 2006-2007.

4-عباد صالح ، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة ، الجزائر، 2005

5-مجهول، مذكرات خير الدين بربروس،ت محمد دراج، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2013.

6-بوحوش عمار ،التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962، دار الغرب الاسلامي بيروت، 1997.

7-صغيري سفيان ، العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671-1830، ماجستير، جامعة الجزائر، 2011-2012.

8-الصلابي علي، صالح رايس السياسي الذي أفشل مخطط احتلال الجزائر ، 2019، المجلة الالكترونية : turkpress. Cdnode /60755

9-الميلي مبارك ، تاريخ الجزائر القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة، الجزائر،1964
10-الزبيري محمد العربي،التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972
11-بوتدارة سالم ، الحركة العلمية بالجنوب الجزائري خلال العهد العثماني على ضوء المصادر المحلية ،ر دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس ،2015-2016.
12-حنيفي هلايلي، اوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني ،ط1، دار الهدى، عين مليلة، 2008.
13-التازي عبد الهادي،التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم (عهد بني مرين والوطاسيين)، مطابع فضالة ، المغرب، 1988.
14-الوفراني محمد الصغير، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ت هوداس، دار بردين،فرنسا،1888.
15-الفشتالي عبد العزيز ،مناهل الصفا في مأثر موالينا الشرفا، مطبوعات وزارة الشؤون والثقافة الاسلامية، الرباط،1972.
16-هاليت روبن ،تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ت الهادي أبو لقمة ومحمد عبد العزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ، 1988.
17-حركات ابراهيم ، المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين الى نهاية الوسعديين، ج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000.
18-الادريسي الفقيه ، المغرب والقوى الاجنبية خلال القرنين 16و17، جامعة بني ملال ، المغرب، http://elidrysy.com/tutorials/show/3-morocco-and-foreign-2013 powers.
19-بن قايد عمر،أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الاقصى خلال القرن 11هـ /17م، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، عدد17، غرداية، 2012.
20-ألتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، دار النهضة العربية ، بيروت، 1989
21-طحطح خالد فؤاد ،العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن السادس عشر أواخر القرن الثامن عشر ميلادي، مجلة كان التاريخية، دار ناشري، عدد10، الكويت،2010.

22-بالهواري فاطمة ،العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي، مجلة كان التاريخية، دار ناشري، عدد10، الكويت،2010 .

23-أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى، الدولة السعدية، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955.

24-زريوح زين العابدين ، المرأة بين الفاعلية والتهميش خلال العصر السعدي، مجلة ليكسوس، ، عدد19،المغرب، 2017.

25-الفتوري عطية مخزوم، دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الاسلام)، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998.

26-نصر السيد يوسف ، تاريخ غرب افريقيا ،ط1، دار المعارف، مصر، 1982.

27-زروق محمد، دراسات في تاريخ المغرب، افريقيا الشرق، المغرب، 1991.

10. هوامش:

[1]بن خروفعمار ، **العلاقات بين الجزائر والمغرب1659/1517م**، ر ماجستير، جامعة دمشق ،1983.

[2]نفسه

[3]كليل صالح، **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الاوسط** ، رسالة ماجستير ، جامعة باتنة، 2006-2007

[4]كليل صالح، **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الاسباني لاحتلال المغرب الاوسط** ، رسالة ماجستير ، جامعة باتنة، 2006-2007

[5]عباد صالح ، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830**، دار هومة ، الجزائر، 2005

[6] نفسه

[7]مجهول، **مذكرات خير الدين بربروس**،ت محمد دراج، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر ، 2013

[8]بوحوش عمار ،**التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية1962**، دار الغرب الاسلامي بيروت، 1997

[9]صغيري سفيان ، **العلاقات الجزائرية العثمانية خلال عهد الدايات في الجزائر 1671–1830**، ر ماجستير، جامعة الجزائر، 2011–2012

[10]الصلابي علي ، **صالح رايس السياسي الذي أفشل مخطط احتلال الجزائر** ، 2019، المجلة الالكترونية turkpress. Cdnode /60755 :

[11] صالح عباد، المرجع السابق

[12]الميلي مبارك ، **تاريخ الجزائر القديم والحديث**، ج3، مكتبة النهضة، الجزائر،1964

[13]الزبيري محمد العربي،**التجارة الخارجية للشرق الجزائري**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972

[14] عمار بحوش، المرجع السابق

[15]بوتدارة سالم ، الحركة العلمية بالجنوب الجزائري خلال العهد العثماني على ضوء المصادر المحلية ،ر دكتوراه، جامعة سيدي بلعباس ،2015–2016

[16]حنيفي هلايلي، **اوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني** ،ط1، دار الهدى، عين مليلة، 2008.

[17]التازي عبد الهادي،**التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور الى اليوم (عهد بني مرين والوطاسيين)**، مطابع فضالة ، المغرب، 1988.

[18]الوفراني محمد الصغير، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، ت هوداس، دار بردين،فرنسا،1888

[19]الفشتالي عبد العزيز ،**مناهل الصفا في مأثر موالينا الشرفا**، مطبوعات وزارة الشؤون والثقافة الاسلامية،الرباط،1972

[20]هاليت روبن ،**تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، ت الهادي أبو لقمة ومحمد عبد العزيز، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ، 1988

[21] عمار بن خروف، المرجع السابق

[22]حركات ابراهيم ، **المغرب عبر التاريخ من بداية المرينيين الى نهاية الوسعديين**، ج2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000

[23] التازي عبد الهادي، المرجع السابق

[24]الادريسيالفقيه ، **المغرب والقوى الاجنبية خلال القرنين 16و17**، جامعة بني ملال ، المغرب، http://elidrysy.com/tutorials/show/3-morocco-and-foreign-2013 powers

[25]بن قايد عمر،**أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الاقصى خلال القرن 11هـ /17م**، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، عدد17، غرداية، 2012

[26]ألتر عزيز سامح، **الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية** ، دار النهضة العربية ، بيروت، 1989

[27] المرجع نفسه

[28]طحطح خاليد فؤاد ،**العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن السادس عشر أواخر القرن الثامن عشر ميلادي**، مجلة كان التاريخية، دار ناشري، عدد10،الكويت،2010

[29]بالهواري فاطمة ،**العلاقات التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي خلال القرن الرابع الهجري العاشر ميلادي**، مجلة كان التاريخية، دار ناشري، عدد10، الكويت،2010

[30] أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الاقصى، الدولة السعدية، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955

[31]زريوح زين العابدين ، **المرأة بين الفاعلية والتهميش خلال العصر السعدي**، مجلة ليكسوس، ، عدد19 ،المغرب، 2017

[32] صلاح العقاد ، المرجع السابق

[33]الفتوري عطية مخزوم، **دراسات في تاريخ شرق افريقيا وجنوب الصحراء (مرحلة انتشار الاسلام)**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1998

[34] نصر السيد **يوسف** ، **تاريخ غرب افريقيا** ،ط1، دار المعارف، مصر، 1982

[35] بن خروف عمار، المرجع السابق

[36]زروق محمد، **دراسات في تاريخ المغرب، افريقيا الشرق**، المغرب، 1991